

من تراب (٣٦٦) الذين علموا سلامة موسى (*) الطريق

الإنسان في تكوينه محصلة عوامل عدة .. تَغْلُبُ في الصغر عواملُ الوراثة والتنشئة والبيئة ، وَيَغْلُبُ في الكبر عوامل الإثراء الواعي بالاحتكاك والممارسة ، والاطلاع والتجربة .. قد يختلف كل منها في تكوين الشخصية وإنائها ، ولكنها على الإجمال محل اتفاق كعوامل لها أثرها بدرجة أو أخرى في هذا المجال .

من هذا المنطلق وقف المفكر الكبير سلامة موسى ليستكشف بعض العوامل التي كونت فكره .. فانتقى لفيقاً من المفكرين والكتاب ، والفلاسفة والعلماء والشعراء ، رأى لكل منهم نصيباً فيما تعلمه أو أضافه إلى نفسه .. فكتب عنهم وعن فكرهم أو إنتاجهم في كتابه : «هؤلاء علموني» .

والتعلم الذي يقصده سلامة موسى ليس بالضرورة تعلماً بالأخذ المطلق أو الموافقة ، وإنما قد يكون بالمعارضة .. أى بما قد يثيره فكر الآخرين من حوار أو نقاش داخلي يصل بالمرء إلى نتائج أو محصلات معينة .. لذلك نلمح تحت عنوان الكتاب - مأثورة اختارها سلامة موسى «لجوته» تقول : كن رجلاً ولا تتبع خطواتي .. ثم لا يكتفى بهذا الإلماح ، فيبين في التقديم أن المؤلف أو المفكر العظيم ، ليس هو الذي

(*) المال ٢/١٢/٢٠٠٩

يجعلنا نرى الدنيا بعينه ، ونشهد على الناس والأشياء بضميره ، وإنما هو الذى يعلمنا الاستقلال راثين ومشاهدين وناقدين .

من هؤلاء الذين تأثر بهم سلامة موسى ، سواء بالاتفاق أو بالمخالفة ، اختار فولتير داعية الحرية ومحطم الخرافات ، وجوته الأديب والشاعر صاحب الشخصية العالمية ، وداروين صاحب نظرية النشوء والارتقاء ، وفيسمان المؤلف الذى يقول عنه إنه أفسد ذهنه نحو أربعين سنة ، وأبسن المؤلف المسرحى الفذ ، والفيلسوف فردريك نيتشه الذى أخذ به سلامة موسى فترة ، ثم تركه بغير أن يزيله حُبّه ، ورينان الأديب الذى غرس فى نفسه الروح البشرى ، ودستوفسكى الروائى الروسى الذى يمثل عبقرية الإحساس ، وفرويد صاحب الوثبات الطوال فى تشريح البشرية ، وبرناردشو الكاتب والفيلسوف الساخر الذى كانت حياته هى كتابه الأكبر ، واتبع أسلوبا فى العيش خلاصته : إنها يكون الإنسان فاضلا إذا أعطى المجتمع الذى عاش فيه أكثر مما أخذ منه .. وغير هؤلاء : غاندى داعية الاستغناء ، وويلز الكاتب والمؤرخ والأديب وفيلسوف الصحافة .. وشفيتزر صديق الزوج ، وجون ديوى فيلسوف العلم ، وسارتر فيلسوف الوجودية وزعيم الانفرادية .

مع كل هؤلاء ، وزيدة فكرهم واتجاهاتهم - عاش سلامة موسى فى صفحات الكتاب التى يسوقها للقارئ سهلة هينة ، ولكنها عصارة حياة بكل ما فى هذا التعبير من معنى .

فولتير مثلا .. مَنْ هو ، وماذا تعلم منه سلامة موسى؟! .. بين مولده بفرنسا سنة ١٦٩٤ ، ووفاته عام ١٧٧٨ ، عاش حياة صعبة مليئة

بالنضال والمعاناة ، يعد نفسه فيها لقضية الحرية ، واستطاع بجهوده أن يغير تاريخ أوروبا كلها ، وأن ينقلها من التعصب إلى التسامح ، ومن التقييد إلى التحرير ، ويغرس شجرة الديمقراطية .. كان العنت الذى لاقاه فى دعوته إلى الحرية عامة ، وحرية العقيدة خاصة - شديداً وقاسيا ، تحالفت عليه الكنيسة الكاثوليكية مع الحكومة الفرنسية .. ولكنه لم يتراجع ، وعاش حياته يؤدى رسالته فى صيانة الحرية حتى لُقّب بزعيم الحرية .. وكانت شكاوى المضطهدين من الأحرار تصله من جميع الأقطار ، فيجمع لإنقاذهم الأموال ، ويقود من أجل ذلك الحملات .. وكان يقول : « قد اختلف معك فى الرأى ، ولكنى على استعداد لأن أدفع حياتى ثمنا لحقك فى التعبير عن رأيك » .. إن العبرة الكبرى التى تُستخلص من حياته ، هى أن الأديب ليس رجل القلم والحبر وتقليب الكتب واجترار الأقوال القديمة ، وإنما هو المكافح المفكر الذى يشترك فى هموم البشر واهتمامات المفكرين وإنهاء التطور والرقى .. فأدباء البرج العاجى الذين يقفون بعيداً عن معترك الحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، إنما هم بمثابة الجندى الفار من المعركة !!

جوته : نعرفه أديباً ، وعالماً ، وشاعراً .. ونُعجب من مؤلفاته «بآلام فيرتر» و «فاوست» ، وبفيض زاخر من الأشعار .. ومع ذلك فإن اهتمام جوته الأول لم يكن بالعلوم والآداب ، وإنما كان بالحياة نفسها .. كان يحب ، ويختبر ، ويسبح ، ويشغل المناصب الحكومية ، ويقرأ ، ويتشقف .. ولكن هدفه الوحيد من كل ذلك كان «شخصيته» ، بمعنى أن الثقافة

عنده كانت وسيلة ، أما الغاية فهي بناء الشخصية باعتبارها التحفة الأولى للإنسان الذى يحيا حياة العقل والوجدان .. هذه الشخصية كانت الرسالة الحقيقية لجوته وهى قيمته الخالدة التى تعلّم منها سلامة موسى أننا يجب أن نحيا حياتنا فى تعلم واختبار واستمتاع ، وأن هذا هو بحق منهج الحياة .

و«داروين» .. إن سلامة موسى يرى فيه معلمه الأول ، وصاحب أعمق التأثيرات فيه .. ومع ذلك فلم تكن بداية داروين تبشر فى عرف العامة - بما توصل إليه وأعجب الكثيرين فيه .. كان والده يأنف من ميوله وطباعه ، ويقول له : «أنت لا تعنى إلاّ بصيد الكلاب ، واقتناص الجرذان ، وسوف تكون عارًا على نفسك وعلى عائلتك» .. فهل كان داروين عارا حقا على نفسه وعلى عائلته ؟!

لقد التحق بكلية الدين ثم تركها ، وبكلية الطب ثم تركها .. وفى غضون ذلك كله كان يلعب .. يخرج إلى الحقول ، ويجمع النبات ، ويصيد الحشرات ولكن ذلك لم يكن من الشاب اليافع عبثًا ، فكان يقارن بين الأحياء ، ويفكر تفكيراً عميقاً كأنه يتأمر على الكون كله كى يعبره أو يعبر البصيرة البشرية فيه ، وقد كان ، فصار بدل العار فخراً للأمة الإنجليزية ، تدل وتباهى بعبقريته .

فى كتابه «أصل الأنواع» الذى أخرجه سنة ١٨٥٩ م ، زوّد البشرية بمنهج فى التفكير لم تكن تعرفه من قبل ، وحمل إلى القراء شيئين : أولهما معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع من حيوان ونبات ، وأنها جميعاً ترجع إلى أصل واحد أو أصول قليلة ، وثانيهما منهج للدراسة عماده

أن الاستقرار لا تعرفه الطبيعة ، وأن الكائنات جميعا في تغير مستمر .
لقد بقى داروين نحو ثلاثين سنة يدرس ويفكر في التطور ، ولكنه لا
يُخرج أو يكتب عنه شيئا ، ثم خرج من بعد على العالم بكتابه ذاك .. فقد
لاحظ أن الطعام لا يكفي ملايين الملايين من الكائنات ، ومن ثم صار
التنازع على الطعام من أجل البقاء ضرورة حتمية ، وما دام كل فرد يولد
مختلفا عن الآخر في الحيوان والنبات ، فإن النصر أو الهزيمة في معركة
الحياة للبقاء رهيتان بها في الفرد أو العنصر من مزايا أو عيوب .

ولكن هل يقف الفرد أو العنصر عاجزا أمام ما فيه من عيوب تقعده
في معركة البقاء .. يجيب داروين على ذلك بالنفى ، ويلاحظ أن الكائنات
ظلت في حركة تغير مستمرة جيلا بعد جيل لتطور بها يلائم متطلباتها
ويجنبها هذه العيوب .. فإذا تراكمت التغيرات ، أحدثت سلالات
جديدة ، وإذا زاد الاختلاف بين السلالات ظهرت الأنواع الجديدة .

من هنا انتهى داروين إلى أن التغير والتطور هما نسبة من سنن الأحياء
من نبات وحيوان ، وأن ذلك هو جوهر الارتقاء في صفات ومكنات
هذا وذاك .. فليس جلّ معنى «البقاء للأصلح» - نتيجة صراع الأحياء
معًا من أجل البقاء ، وإنما من معناه أيضًا نقاء وازدهار الصفات الصالحة
المعتبرة في كل عنصر من الأحياء ، وانقراض غيرها من التطور والارتقاء
على مدار الأيام ، وهكذا تمضي الحياة إلى غايتها .

هذا قليل من كثير تعلم منه سلامة موسى ، أو أثار فيه حوافز التفكير ، عرضه
بأسلوب ممتع على صفحات كتاب هو بحق عصارة فكر وعصارة حياة !